ذات الوشاح الأسود

يومٌ مرهق آخر قد مر على هاشم، وهو ينقل الزبائن بسيارة الأجرة الخاصة به من مكان إلى مكان، ومن شارع إلى آخر.

أصبحت حياته فصلا مكررًا مملًا، يُعاد كل يوم بنفس التفاصيل ونفس الأحداث.. لكنه يتحمل ذلك عن طيب خاطر، عندما يعود آخر الليل، ويعطي زوجته حصيلة اليوم مخصومًا منها ثمن الوقود وطعامه.

وتتلخص مهمتها في توزيعه بين مصاريف المنزل و مصاريف (سامح) ابنهم - طالب كلية الحقوق - وإدخار جزء بسيط منه لما تخبئه لهم الأيام من ظروف طارئة غير متوقعة.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل عندما مر من هذا الطريق الخالي من السيارات والمارة.. كان عائدًا من قرية قام بتوصيل أحد الزبائن إليها، وتحصل منه على ما يوازي نصف ما جمعه طوال اليوم كله، لذلك كان منتشيًا سعيدًا يدندن مع المذياع أغنية لأم كلثوم.

لم يكن هذا سبب انتشائه فحسب، بل كانت الحبوب المنشطة التي اعتاد على تناولها منذ زمن لا يعرف بدايته قانعًا نفسه بأنه لا يتناولها لمزاجه الشخصي، لكن لتجعله مستيقظًا حتى هذا الوقت، فتزيد محصلة اليوم وحتى لا يتعرض لحادث.. وما أكثر حوادث الطرق هذه الأيام.

لم تكن هذه أول مرة يمر فيها من هذه الطريق، بل أصبحت زيارته لهذه القرية والمرور بهذا الطريق ذهابًا وعودة أمر مكرر بشكل أسبوعي.. لكن مؤخرًا أصبح المرور فيه يصيبه بالرهبة والقشعريرة!

أخرجه من حالة الانتشاء والدندنة تلك.. امرأة تقف في وسط الطريق تشير له بكلتا يديها بالتوقف، مما اضطره للضغط على المكابح بسرعة قبل أن يصدمها.

- هل أنتِ مجنونة؟ كدت أن أصدمك.

- بكل هدوء وبصوت أهدأ لا يتناسب مع الموقف:لا عليك، اعذرني.. فهذه هي الطريقة المثلى لإيقافك.. جربت الطرق التقليدية وها أنا ذا أقف وحيدة وقد تآكل الليل.. هل يمكنك أن تأخذني معي في طريقك؟

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- لا تقلق، طريقنا واحد صدقني.. والآن هل تتفضل بفتح باب السيارة، فيداي مصابة بالحروق للأسف.

ترجل من سيارته ممتعضًا، وحاول فتح باب السيارة الخلفي فاعترضت.. وطالبته بفتح باب السيارة الأمامي لتجلس بجواره على غير المعتاد من زبائنه، خاصة النساء منهم!

فتح لها الباب وجلست، فأغلقه خلفها، وعاد لمكان القيادة ليواصل طريقه.

امرأة ثلاثينية رغم شحوب وجهها الأبيض تمامًا، إلا أن ملامحها تشي بجمالٍ هادئٍ جذاب، يبرزه أنفها الدقيق وشفتاها الصغيرتان وعيناها الواسعتان.. وكانت تداري خصلات شعرها بوشاح أسود يزيدها جاذبية.

أول ما جال بخاطر هاشم، أنها فتاة ليل أو ما شابه.. ودليله هو وجودها في هذا المكان، في هذا الوقت، وجلوسها بجواره الآن.. كان قد اكتسب خبرة في تمييز هذا النوع من الزبائن، وكم من مرة تحصل على أجرته منهم بالطريقة الوحيدة التي يجيدونها، وكان مستعدًا للحصول على أجرته من هذه المرأة بنفس الطريقة من باب متعته الخاصة وحب التغيير!

- هل أنت سعيد في حياتك ؟

فاجئته بهذا السؤال الفلسفي الذي لم يعتد عليه من زبائنه.

- إلى حد ما.. نحمد الله مستورة.. رغم الغلاء إلا أن ربك يدبرها من حيث لا نحتسب.

إجابات غير متزنة غير مرتبة تناسب سؤالها المريب.

- متأكد أنها مستورة ؟ ولا أقصد بسؤالي الماديات، أعلم جيدا أنك تلبي احتياجات بيتك ويزيد.

- لا أفهم.. ماذا تقصدين بالضبط.

- ما رأيك في زوجتك (عفاف).. صحيح هل اتصلت بك الاتصال المعتاد لتطمئن على موعد وصولك للمنزل؟

أصابته كلماتها بالذهول والصدمة.. فكيف عرفت اسم زوجته! وكيف عرفت عادتها المحببة إلى قلبه، والتي من المفترض أنه لا أحد غيرهم يعرفها.

- كيف عرفت اسمها! هل تعرفينها ؟

- ليس هذا هو السؤال الصحيح يا عزيزي.. بل لماذا أسألك هذه الأسئلة من الأساس.

استشاط (هاشم) غضبًا من أسلوبها وكلماتها الغامضة..

- إن لم تخبريني ما وراؤك سأقتلك يا امرأة.

ضحكت بسخرية وبنفس الهدوء والثقة أجابته: تقتلني! قبل أن أكشف لك الحقيقة!

- أي حقيقة تقصدين! هيا تكلمي.. هاتِ ما عندك..

- حقيقة حياتك القبيحة القميئة، والتي تتوهم جمالها.

- كفاك ألغازا يا امرأة، وأخبريني ما عندك، وإلا كان هذا اليوم هو آخر يوم في حياتك.

- فقط أجبني وسأخبرك بكل شيء، وصدقني ستندم على تعجلك في معرفة الحقيقة، وستتمنى لحظتها لو عشت عمرك كله في وهمك.. والآن قل لي، هل اتصلت بك (عفاف)؟

شيءٌ في كلامها يوحي بالرهبة والسيطرة عليه، قوة خفية جعلته يخضع لإرادتها ويسايرها للنهاية.

- نعم، منذ قليل، وعرفت أن أمامي ساعة على الأقل للوصول وبدأت في إعداد وجبة العشاء.

- وطبعًا تُسَر وتفرح باتصالها، وتعتبره اهتمامًا من زوجتك الحنونة، ولا تعرف أن اتصالها اليومي لغرض خبيث.

- ماذا تقصدين؟

- زوجتك تفعل ذلك حتى لا تعود وتجد (عمر) صديق عمرك وجارك في حضنها على فراشك.. وقبل أن تغضب وتثور فقط اتصل بها الآن وأخبرها أنك تقف على باب الشقة، واطلب منها أن تفتح لك الباب بسرعة.

تمالك أعصابه وانصاع لكلامها، وللأسف حدث ما خشي أن يحدث من زوجته.

ارتباكٌ شديد منها، ولومٌ شديد عليه، لأنه خدعها وجاء مبكرًا وفي نفس اللحظة اتصل بهاتفه الآخر الذي كان يستخدمه للزبائن على صديقه (عمر) ليسمع نغمة هاتفه وهو يحدث زوجته المصون.. لتفلح خطة المرأة التي رسمتها له في إثبات صحة اتهاماتها لزوجته وصديقه.. ليغلق الهاتفين وتغرورق عيناه بالدموع.. دموع قهر الرجال!!

- أظنك الآن ستصدقني عندما أخبرك بالنصف الآخر من الحقيقة.

- وهل هناك مصائب أخرى ؟

- ابنك (سامح) والذي تظن أنه في الفرقة الثالثة بكلية الحقوق.

- أظن!!

- طبعاً لم يخبرك أنه رسب عامين في الفرقة الأولى، وقام بالتحويل لكلية الآداب، وأنه مازال في الفرقة الأولى فيها.

- ما هذا الجنون؟ اصمتي.. اصمتي كفاكي.

- اعتمد على عدم اهتمامك، وعدم وجود وقت لديك لتسأل عنه وتكتشف الحقيقة.. بالمناسبة هناك شيء بسيط آخر يتعلق به.

لم يُجِبها هذه المرة، اكتفى من مقاومتها، وجعلها تسكب عليه الحقائق الصادمة كالماء البارد على رأسه.

- ابنك مدمن هيروين، وتحليل دم بسيط يثبت ذلك.

بدأ يصرخ ويضرب رأسه في عجلة القيادة بجنون وحنق وغيظ.

- كفى.. كفى.. كفي.

ثم التفت إليها بغتة..

- من أنت وما مصلحتك في كل ذلك، ماذا استفدتي الآن! بالله اخبريني قبل أن أفقد عقلي.

- هذا دين قديم وأنا سددت نصفه الآن، وبقي النصف الآخر وسأسدده قريبًا جدًا.

- دين قديم!

- نعم.. فقد كنت السبب في قهرتي على فراق زوجي وحب عمري، لأتركه لغيري تستمتع به.. وقهرتني في ابني وفلذة كبدي، صغيري الذي لم أهنأ به وتركته لامرأة غيرى تربيه.. وها قد رددت لك الدين، وأنا أرى قهرتك في زوجتك المصون وابنك البار.

ثم انطلقت منها ضحكة شيطانية مختلطة بالدموع.

- ما هذا الجنون! أنا أول مرة أراكِ في حياتي!

- وأنا أيضًا.. لم نتقابل وجهًا لوجه كان لقاءً عابرًا.. أنا أمر بالشارع لتأتي أنت بسيارتك المسرعة تصدمني وتلقيني على الجانب الآخر من الطريق، وتكمل في طريقك كأنك لم تفعل شيئًا .

كأنها ضربته على رأسه ليستعيد ذكرى حسب أنه نسيها، الذكري التي بسببها كان يشعر بالرهبة والقشعريرة عند المرور في هذا الطريق التي وقعت فيه الحادثة بالتحديد، وتحديدًا في نفس المكان الذي قابل فيه المرأة!

- هل جئتِ لتقتليني.. سامحيني أرجوكي، ولنحمد الله فما زلتِ بخير والحمد لله.

- بخير!!

وقهقهت بصوتٍ عالٍ مخيف وبدأت علامات التحول تبدو على وجهها الجميل!!

عندها لاحظ أن المرآة لا يوجد فيها انعكاسًا لصورتها، وأن الهواء الشديد القادم من خارج السيارة لا يحرك فيها ساكنًا، وهذا جليًا في وشاحها الثابت.

الآن بدأ يفهم....وبدأ يفهم لماذا أصرت على أن يفتح لها الباب بنفسه.. وفسر كل حرف نطقت به، ولكن بعد فوات الأوان فقد تحول وجهها لأبشع وجه رآه في حياته، من المؤكد أنه اكتسب بعض خصيلات الشعر البيضاء هذه الليلة قبل أن يلاحظ أنه فقد التحكم في سيارته، لتنحرف عن مسارها لتنقلب على جنبها قبل أن تنفجر.

المثير للدهشة؛ أن تقرير الطب الشرعي أثبت أنه فقد حياته نتيجة أزمة قلبية حادة، وليس بسبب الحادث وانفجار السيارة، وأن وجهه قد تيبس وهو يوحي بكل علامات الفزع والارتياع.. يبدو أنها قد سددت النصف الآخر من الدين كما وعدته.

تمت الحمد لله

بقلم / يحي الجبالي